

{ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ } * { فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ } * { إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ } (3-1)

القرآات { شانيك } بالياء: يزيد والشموني وحمزة في الوقف. وقراً قتيبة ونصير مهموزاً
مماله. الوقوف { الكوثر } ه ط { وانحر } ه ط { الأبر } ه.

التفسير: هذه السورة كالمقابلة للسورة المتقدمة، لأن تلك مثال لكون الإنسان في
خسر، وهذه للمستثنين منهم بل لأشرفهم وأفضلهم وهو النبي صلى الله عليه وسلم بل
له ولشانيه، فكأنها مثال للفريقين جميعاً. هذا وجه إجمالي وأما الوجه التفصيلي فقوله {
إنا أعطيناك الكوثر } أي الخير الكثير وقع في مقابلة الدع والمنع من الإطعام وقوله
{ فصل } أي دم على الصلاة وقع بإزاء قوله
{ عن صلاتهم ساهون }

{ الماعون:5} وقوله { لربك } مكان قوله

{ يراءون }

{ الماعون:6} وقوله { وانحر } والمراد به التصديق بلحوم الأضاحي بجذاء قوله

{ ويمنعون الماعون }

{ الماعون:7} ثم ختم السورة بقوله { إن شائئك هو الأبر } أي الذي تضاد طريقته

طريقتك سيزول عنه ما يفتخر به من المال والجاه والأحساب والأنساب ويبقى لك

ولمتابعيك الذكر الجميل في الدنيا والثواب الجزيل في العقبى، بل يدوم لك النسب

الصوري بسبب أولادك الشرفاء والنسب المعنوي بواسطة أتباعك العلماء، ثم في الآية أصناف من المبالغة منها: التصدير بـ " إن " ومنها الجمع المفيد للتعظيم، ومنها لفظ الإعطاء دون الإيتاء ففي الإعطاء دليل التمليك دون الإيتاء ولهذا حين قال

{ولقد آتيناك سبعاً من المثاني}

[الحجر:7] كان أمته مشاركين له في فوائدها ولم يكن له منعهم منها. ومنها صيغة المضى الدالة على التحقيق في وعد الله تعالى كما هي عادة القرآن، ومنها لفظ الكوثر وهو مبالغة في الكثرة بزيادة الواو كجدول فيشمل خيرات الدنيا والآخرة، إلا أن أكثر المفسرين خصوه فحملوه على أنه اسم نهر في الجنة. عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم " رأيت نهرًا في الجنة حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف فضربت بيدي إلى مجرى الماء فإذا أنا بمسك أذفر فقلت: ما هذا؟ فقيل: هو الكوثر الذي أعطاك الله " وفي رواية " ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل فيه طيور خضر لها أعناق كأعناق البخت من أكل من ذلك الطير وشرب من ذلك الماء فاز بالرضوان " قال أهل المعنى: ولعله إنما سمي كوثرًا لأنه أكثر أنهار الجنة ماء وخيرًا، أو لأن أنهار الجنة تتفجر منه كما روي أنه ما في الجنة بستان إلا وفيه من الكوثر نهر جار أو لكثرة شاريه. وقد يقال: إن الكوثر حوض في الجنة على ما ورد في الأخبار فلعل منبعه حوض ومنه تسيل الأنهار، والقول الثالث أن الكوثر أولاده لأن هذه السورة نزلت رداً على من زعم أنه الأبر كما يجيء والمعنى أنه يعطيه بفاطمة نسلاً يبقون على مر الزمان. فانظر كم قتل من أهل البيت ثم العالم مملوء منهم، ولم يبق من بني أمية في الدنيا أحد يعبأ به، والعلماء الأكابر منهم لا حد ولا حصر لهم.

منهم الباقر والصادق والكاظم والرضي والتقي والنقي والزكي وغيرهم. القول الرابع:
الكوثر علماء أمتهم لأنهم كأنبيا بني إسرائيل واختلافهم في فروع الشريعة رحمة كما
كان اختلاف الأنبياء في الفروع رحمة مع اتفاقهم على الأصول فالتوحيد والنبوة والمعاد
كأصول الشجرة وأديان الأنبياء كشعبها الكبار، والمذاهب كالأغصان المتفرعة عن
الشعب. الخامس: الكوثر النبوة ولا يخفى ما فيها من الخير الكثير لأنها ثانية رتبة
الربوبية ولهذا كانت طاعة الرسول طاعة الله ثم لرسولنا الحظ الأوفر من هذه الفضيلة
لأنه المذكور قبل سائر الأنبياء والمبعوث بعدهم، ثم هو مبعوث إلى الثقيلين ولن يصير
شرعه منسوخاً وله كل معجزة كانت لغيره من الأنبياء المشهورين، وكتاب آدم كان
كلمات كما قال

{فتلقى آدم من ربه كلمات}

[البقرة:37] وكتاب إبراهيم وموسى كان كلمات وصحفاً

{وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات}

[البقرة:124] و

{صحف إبراهيم وموسى}

[الأعلى:19] وكتاب محمد صلى الله عليه وسلم مهيمن على الكل كما قال

{ومهيمننا عليه}

[المائدة:48] وإن آدم عليه السلام تحدى بالكلمات والأسماء

{أنبئوني بأسماء هؤلاء}

[البقرة:31] ومحمد صلى الله عليه وسلم إنما تحدى بالمنظوم

{قل لئن اجتمعت الإنس والجن}

[الإسراء:88] الآية. وأما نوح عليه السلام فإن الله أكرمه بأن أمسك سفينته على

الماء، وفي حق محمد صلى الله عليه وسلم وقف الحجر على الماء. وروى أنه صلى الله عليه وسلم كان على شط ماء ومعه عكرمة بن أبي جهل فقال: إن كنت صادقاً فادع ذلك الحجر الذي هو في الجانب فليسبح ولا يغرق، فأشار الرسول صلى الله عليه وسلم إليه فانقلع الحجر من مكانه وسبح حتى صار بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم وشهد له بالرسالة. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: يكفيك هذا؟ قال: حتى يرجع إلى مكانه. فأمره النبي صلى الله عليه وسلم فوجع إلى مكانه. وأكرم إبراهيم فجعل النار برداً وسلاماً عليه. وروى محمد بن حاطب قال: كنت طفلاً فانصب القدر من على النار علي فاحترق جلدي كله فحملتني أمي إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقالت: هذا ابن حاطب احترق كام ترى، فتفل رسول الله صلى الله عليه وسلم على جلدي ومسح بيده على المحترق منه وقال صلى الله عليه وسلم: أذهب البأس رب الناس. فصرت صحيحاً لا بأس بي. وأكرم موسى بفلق البحر في الأرض وأكرم محمداً صلى الله عليه وسلم ففلق له القمر فوق السماء، وفجر له الماء من الحجر، وفجر لمحمد صلى الله عليه وسلم أصابعه عيوناً، وأكرم موسى بتظليل الغمام في زمان نبوته، وأكرم محمداً صلى الله عليه وسلم بذلك قبل ظهور نبوته، وأكرم موسى عليه السلام باليد البيضاء وأكرم محمداً صلى الله عليه وسلم بالقرآن العظيم الذي هو نور من الله برهان.

وقلب الله عصي موسى ثعباناً. ولما أراد أبو جهل أن يرميه بالحجر رأى على كتفيه ثعبانين فانصرف مرعوباً. وسبحت الجبال مع داود عليه السلام وسبحت الأحجار في يده ويد أصحابه. وكان داود عليه السلام إذا مسح الحديد لان، وكان النبي صلى الله عليه وسلم حين مسح الشاة الجدباء درت. وأكرم داود بالطير المشورة ومحمداً صلى

الله عليه وسلم بالبراق، وأكرم عيسى بإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص. وأكرمه صلى الله عليه وسلم بإحياء الشاة المسمومة وبتكلمها أنها مسمومة. وروي أن معاذ بن عفراء كانت له امرأة برصاء فشكت ذلك إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فمسح عليها بغصن فأذهب الله عنها البرص، وحين سقطت حدقة رجل يوم أحد رفعها رسول الله صلى الله عليه وسلم فردها إلى مكانها. وكان عيسى يخبر بما في بيوت الناس والرسول صلى الله عليه وسلم عرف ما أخفته أم الفضل فأسلم العباس لذلك، ورد الشمس لسليمان مرة والرسول كان نائماً ورأسه في حجر علي عليه السلام فانتبه وقد غربت الشمس فردّها حتى صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وردها مرة أخرى لعلي عليه السلام فصلى العصر لوقته. وعلم سليمان منطق الطير وفعل ذلك في حق محمد صلى الله عليه وسلم، روي أن طائراً فجّع بولده فجعل يرفرف على رأسه ويكلمه فقال: أيكم فجّع هذه بولدها؟ فقال رجل: أنا فقال: أردد ولدها، وكلام الذئب والناقة معه مشهور. وأكرم سليمان بمسير غدو شهر وأكرمه بالمسير إلى بيت المقدس في ساعة، وكان له صلى الله عليه وسلم يعفور يرسله إلى من يريد فيجيء به. وأرسل معاذاً إلى بعض النواحي فلما وصل إلى المفزة فإذا أسد جاثٍ فهاله ذلك ولم يستجريء أن يرجع فتقدم وقال: إني رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم فتبصص، وكما انقاد الجن لسليمان انقادوا لمحمد صلى الله عليه وسلم. وحين جاء الأعرابي بالضرب تكلم الضرب معترفاً برسالته، وحين كفّل الضبية حتى أرسلها الأعرابي رجعت تعدو حتى أخرجته من الكفالة، وحين لسعت الحية عقب الصديق في الغار قالت: كنت مشتاقة إليه. منذ كذا سنين فلم حجبتني عنه. وأطعم الخلق الكثير من الطعام القليل. ومعجزاته صلى الله عليه وسلم أكثر من أن تحصى خصوصاً في هذا المقام فثبت صحة قوله { إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ } قيل: هو القرآن لأن فوائده عديد الحصى. وقيل:

الإسلام أو الشفاعة أو رفع الذكر أو العلم

{وعلمت ما لم تكن تعلم}

[النساء:113] أو الخلق الحسن

{وإنك لعلی خلق عظیم}

[القلم:4] وقد يقال: إن هذه السورة مع قصرها معجزة من وجوه لما فيها من الإخبار بالغيب وهو الوعد بكثرة الأتباع والأولاد وزوال الفقر حتى نحر مائة بدنة في يوم واحد وقد وقع مطابقاً، ولأنهم عجزوا عن معارضتها مع قصرها فإنها أقصر سورة من القرآن.

قوله { فصل لربك وانحر } في الصلاة أقوال: فعن مجاهد وعكرمة معناه اشكر لربك، وفائدة الفاء أن شكر النعمة يجب على الفور لا على التراخي، وقيل: هي الدعاء كأنه

قال: قبل سؤالك ودعائك ما بخلنا عليك بالكوثر فكيف بعد سؤالك فسل تعط

واشفع تشفع وذلك أنه أبدأً كان في هم أمته. والأقرب وعليه الأكثرون أنها الصلاة ذات الهيئات والأركان لأنها مشتملة على الدعاء والشكر وعلى سائر المعاني المنبئة عن التواضع والخدمة، ولأن حمله على الشكر يوهم أنه ما كان شاكراً قبل ذلك لكنه كان من أول أمره مطيعاً لربه شاكراً لنعمه. أما الصلاة فإنه إنما عرفاه بالوحي، يروى أنه

حين أمر بالصلاة قال: كيف أصلي ولست على وضوء؟ فقال الله: { إنا أعطيناك

الكوثر } وضرب جبرائيل بجناحه على الأرض فنبع ماء الكوثر فتوضأ فقبل له عند

ذلك { فصل } وإن حمل الكوثر على الرسالة فكأنه قال: أعطيتك الرسالة لتأمر

نفسك وسائر الخلق بالطاعات { فصل } وفي قوله { لربك } إشارة إلى وجوب

الأضحى مخالفة عبدة الأوثان. وإنما لم يقل لنا سلوكاً لطريقة الالتفات وإفادة لوع من

التعظيم كقول الخلفاء " يرسم أمير المؤمنين كذا " ولأن الجمعية في هذا المقام توهم

الاشترك والعدول إلى الوحدة لو قال " لي " انقطع النظم، ولأنه يفيد أن سبب العبادة هو التربية، ثم الذين فسروا الصلاة بما عرف في الشرع اختلفوا؛ فالأكثر على أنها جنس الصلاة لإطلاق اللفظ، وإنما لم يذكر الكيفية لأنها كانت معلومة قبل ذلك. وقال الآخرون: إنها صلاة عيد الأضحى لاقتها بقوله { وانحر } وكانوا يقدمون الأضحى على الصلاة فأمروا بتأخيرها عنها. والواو تفيد الترتيب استحساناً وأدباً وإن لم تفده قطعاً. وقال سعيد بن جبير: صل الفجر بالمزدلفة وانحر بمنى والمناسبة بين نحر البدن وبين جنس الصلاة أن المشوكين كانت صلاتهم وقرأ بينهم للأصنام فأمر صلى الله عليه وسلم بأن تكون صلاته وقربانه لله تعالى، وكان النحر واجباً على النبي صلى الله عليه وسلم قال صلى الله عليه وسلم " **ثلاث كتبت عليّ ولم تكتب عليّ أمي.** **الضحى والأضحى والوتر** " وإنما لم يقل ضح وإن كان أشمل لأن أعز الأموال عند العرب هو الإبل فأمر بنحرها وصرفها إلى طاعة الله ففي ذلك قطع العلائق الجسمانية ورفع العوائق النفسانية. يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهدى مائة بدنة فيها جمل لأبي جهل في أنفه برة من ذهب، فنحرها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أعيى صلى الله عليه وسلم، ثم أمر علياً بذلك وكانت النوق يزدحمن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أخذ علي عليه السلام السكين تباعدت منه عليه السلام، قال عامة أهل التفسير كابن عباس ومقاتل والكلبي: إن العاص بن وائل وجمعاً من صناديد قريش يقولون: إن محمداً أبتز لا ابن له يقوم مقامه بعده، فإذا مات انقطع ذكره واسترحنا منه، وكان قد مات ابنه عبد الله ابن خديجة فأنزل الله تعالى هذه السورة كما مر في أول " المائدة " والشنء والبغض والشائء المبعوض والبتز في اللغة استئصال القطع ومنه الأبتز المقطوع الذنب، فاستعير للذي لا عقب له ولمن انقطع خبره وذكره، فبين الله تعالى بهذه الصيغة المفيدة للحصر أن أولئك الكفرة هم الذين ينقطع نسلهم

وذكرهم، وأن نسل محمد صلى الله عليه وسلم ثابت باق إلى يوم القيامة كما أخبر
بقوله

"كل حسب ونسب ينقطع إلا حسبي ونسبي" وإن دين الإسلام لا يزال يعلو ويزيد

والكفر يعلو ويقهر إلى أن يبلغ الدين مشارق الأرض ومغاربها كما قال

{أو لم يروا إنا نأتي الأرض ن نقصها من أطرافها}

[الرعد:41] قال بعض أهل العلم: إن الكفار لما شتموه بأنه أبتأر أجاب الله عنه من

غير واسطة فقال { إن شانئك هو الأبتأر } وهكذا سنة الأحاب إذا سمعوا من يشتم

حبيبهم تولوا بأنفسهم جوابه، ونظيره في القرآن كثير

{قالوا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم

[سبأ:7] إلى قوله

{أم به جنة}

[سبأ:8] فقال سبحانه

{بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد}

[سبأ:8] وقالوا هو مجنون فأقسم الله

{ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون}

[القلم:1، 2] وقالوا لست مرسلأ فقال

{يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم}

[يس: 1، 3]

{وقالوا أننا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون}

[الصافات:36] فرد عليهم بقوله

{بل جاء بالحق وصدق المرسلين}

[الصافات:36] ثم ذكر وعيد خصمائه بقوله

{إنكم لذائقوا العذاب الأليم}

[الصافات:38] وحين قال حاكياً

{أم يقولون شاعر}

[الطور:30] قال

{وما علمناه الشعر}

[يس:69] وقالوا

{إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون}

[الفرقان:4] فأجابهم بقوله

{فقد جاؤا ظلماً وزوراً}

[الفرقان:4]

{وقالوا أساطير الأولين}

[الفرقان:5، 6] فقال

{قل أنزله الذي يعلم السر}

[الفرقان:5، 6]

{وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق}

[الفرقان:7] فأجابهم بقوله

{وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق}

[الفرقان:20] فما أجل هذه الكرامة! وقال أهل التحقيق السالكون: بل الواصلون لهم

ثلاث درجات أعلاها أن يكونوا مستغرقين بقلوبهم وأرواحهم في نور جلال الله وأشار

إليهما بقوله { إنا أعطيناك الكوثر } فإن روحه القدسية متميزة في الكثرة عن سائر الأرواح البشرية بالكم لأنها أكثر مقدمات، وبالكيف لأنها أسرع انتقالاً من المقدمات إلى النتائج. وأوسطها أن يكونوا مشغولين بالطاعات والعبادات البدنية وأشار إليها بقوله { فصل لربك } وأدناها أن يكونوا في مقام منع النفس عن الانتصاب إلى اللذات العاجلة وهي قوله { وانحر } فإن منع النفس الشهوية جارية مجرى الذبح والنحر. ومن البيان أن ترتيب السالك هو الأخذ من الأدون إلى الأعلى، وإنما ورد القرآن بما ورد تنبيهاً على أنه صلى الله عليه وسلم كان في نهاية الوصول. وأن هذا الترتيب بالنسبة إليه ينعكس وذلك أنه جاء من الحق إلى الخلق. ثم أشار بقوله { إن شانئك هو الأبتر } إلى أن دواعي النفس التي هي أعدى الأعداء لا بقاء لها، وإنما هي لذات زائلة وتخيلات فانية

{ والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً }

[الكهف:46].